على قاسم زكرى المصرى

«داعى الدعاة» مناظر المعرى

للدكتور محمد كامل حسين

— ٢ —

اتجه المؤيد إلى مصر حيث إمامه الفاطمى ، ومقر الدعوة التى كان يدين بها ، وفى طريقه كان يحدوه أمل باسم مشرق بما سيلقاه فى مصر من تقديم وتكريم لما قام به من جهود فى سبيل الدعوة وعلو كعبه فى علوم المذهب ، فقد كان إليه المرجع فى عويص مسائله ، حتى أن داعى الدعاة الأكبر كان يرسل إليه يسأله ويستوضحه فى بعض المشاكل المذهبية ، لهذا كله بنى لنفسه فى الخيال قصوراً شامخة ، وعلا به خياله إلى الوصول أعلى المراتب ، ولكن هذا الأمل كانت تغشاه أحياناً سحابة مظلمة تطغى على فكره فتهدم ما بناه خياله وتهبط به إلى الحضيض ، فبالرغم من اعتناق المؤيد المذهب الفاطمى ، وبالرغم من شدة احترامه لإمامه حتى درجة التقديس كان المؤيد يعلم أن السلطة الحقيقية فى مصر ليست بيد الإمام إنما كانت بيد أم الإمام ، أو بمعنى آخر كانت بيد التسترى وكيلها ، ولم يكن التسترى يأبه بشئون الدعوة الفاطمية بقدر ما عنى بتركيز سلطانه وسطوته ، فخشى المؤيد أن لا يجد فى مصر ما كان يطمح إليه ، وكاد هذا التفكير يثنيه عن المضى فى رحلته إلى مصر ولكنه نظر حوله فلم يجد مكاناً يأوى إليه آمناً على حياته سوى مصر فمضى إليها حتى دخلها سنة ٤٣٧ هـ . وذهب إلى دار الخلافة حيث قابل الوزير الفلاحى الذى رحب بمقدمه وأكرمه وأمر بأن تجهز له دار وصفها المؤيد بقوله : « فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال ، لا بالإكثار ولا من الإقلال » وسمع الناس بمقدمه ، فتوافدوا على داره للترحيب به ونصحوه بالاتصال بالتسترى . فذهب المؤيد إليه ،

وإذا استثنينا البيت الثالث من هذا الكلام العجيب ، طلبنا من الله لشوقى الرحمة ، كما طلبناها للأستاذ عنبر ...

ولعل أصدق كلمة قيلت فى شعر رامى هى تلك التى كتبها حافظ — رحمه الله — يحيى بها هذا الجزء الثانى الرائع من ديوان رامى ، الذى يجمع شعر صباه أيضاً (١٩١٨ — ١٩٢٠) . قال حافظ :

« أدمنت النظر فى شعر رامى ، فإذا به من ذلك النوع الحسن الذى يعجزك تعليل حسنه . تسمع البيت منه فيشيع الطرب فى نفسك قبل أن تعلم مأتاه ، وقبل أن يتطلع العقل إلى إلى فهم معانيه . ذلك هو شعر النفس ، وهو أرقى مراتب الشعر

ورامى شاعر موفق الشيطان إذا تغزل أو وصف ، رقيق حواشى الألفاظ ، بعيد مرامى المعانى ، يقول الشعر لنفسه ، وفى نفسه ، فإذا جلس إليه ، وسنح له المعنى العصرى ، تخير له اللفظ السَّرِى

وهو كثير الاعتماد على نفسه فى شعره ، فلا يتسلق على كلام غيره ، وأثر ذلك بيّن فى غزله ووصفه ، فقد نحا فيهما منحى عصرياً جديداً ، أكرمهما فيه عن عنجهية البداوة ، وركاكة أولئك الذين تصدوا لقرض الشعر ، فوضعوا أمامهم مشقاً من الشعر الغربى ، وترجموا معانيه ، ولكن إلى ألاّ لغة ، فجاء أسلوبهم يرتضخ أعجمية ، وأسلوب رامى يتدفق عربية . فديوانه سلوة العاشق ، ونزهة المتأمل »

وحافظ رحمه الله صادق جداً فى معظم هذه النظرة السريعة المركزة فى شعر رامى ، وإن ظلمه بقصر نبوغه على الغزل والوصف ، إذ عبقرية رامى عبقرية متعددة النواحى ، إذا جاء الغزل وأشعار الغرام فى أولها ، لم يأت شعر الوصف فى المرتبة الثانية مباشرة ، بل سبقته ألوان زاهية زاهرة من شعر رامى .. فى مقدمتها ذلك الشعر الإنسانى الرفيع الذى سوف نتحدث عنه بعد أن نذكر لك هذا الكلام الذى جرى الكتاب على إثباته والذى تعرف أكثره ؛ فنذكر أن رامى ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٨ ، أى فى السنة التى عرفنا أن أخانا الشاعر المحبوب « ناجى » ، وأن شاعرنا الجليل الموهوب « عزيز أباظة » قد ولدا فيها . وأن والده كان طبيباً كبيراً معروفاً ، وأنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم زهد فى حرفة التدريس ففرغ لقرض الشعر مستعيناً براتبه الحكومى ومنصبه فى دار الكتب ، وما تدره عليه أغانيه ودرامانه الشعبية من ربح حلال لا أظن أنه ينتفع بمعظمه ، وإنما ينتفع به البائسون والمحتاجون ...

(يتبع)

دميانة غنيمة

وبالغ التستري في إكرامه ووهبه الأموال والخلع ، وأخذ يعده ويمنيه بل أراد أن يختص بالمؤيد دون غيره من وجوه المصريين، ولكن هذه الوعود كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فلم يف التستري بما وعد بل كاد للمؤيد ومنعه من مقابلة إمامه المستنصر ، وزاد الطين بلة أن بعض المغرضين سعوا بالفساد بين المؤيد والتستري ، وخوفوا التستري من وجود المؤيد وقالوا له : « كيف تطوع لك نفسك أن تأخذ هذا الرجل الأعجمي المقام الذي أنت مخصوص به ، وما يؤمنك أنك إذا أدخلته أخرجك وإذا قدمته أخرك ، وهو أبسط منك لساناً وأقوى جناناً ، وهو يدل بعزة الإسلام والتخصيص بالدعوة والخدمة » فكان لهذا الكلام وأمثاله أثر في نفس التستري الذي قلب للمؤيد ظهر المجن وأوعز لبعض حاشيته للتحرش بالمؤيد حتى ضاق المؤيد ذرعاً ، كان يلتفت حوله فلم يجد له ناصراً ولا معيناً حتى الوزير الفلاحي لم يستطع مساعدته ومؤازرته في هذا الوقت ، وهنا أجد في سيرة المؤيد التي كتبها عن نفسه صورة دقيقة لحالة رجال مصر في هذا الوقت ، ولا سيما لهؤلاء الذين يتنافسون للوصول إلى الحكم وإلى المؤامرات التي كان يدبرها بعضهم لبعض التي أدت إلى اضطراب البلاد ، والغريب أن يصدر هذا الكلام من رجل خدم الدعوة الفاطمية وأشاد بذكر الفاطميين وفضائلهم وتهكم بخصومهم ، ومع ذلك كله كان المؤيد في سيرته مؤرخاً صادقاً صور حالة مصر كما هي دون تحيز لإمامه أو خوف ممن تناولهم من معاصريه ، فقد كانوا جميعاً يخشون ازدياد نفوذ المؤيد فعملوا جميعاً على الإيقاع به . لذلك فكر المؤيد في الخروج من مصر بل استعد فعلاً للرحيل ، ولكن التستري خاف من المؤيد إذا خرج من مصر فمنعه من الرحيل ليكون تحت رقابته ورقابة عيونه ، فاضطر المؤيد أن يكشف القناع عن هذا الرجل وأن يهجو التستري في كل مناسبة تتاح له ، فبسط فيه لسانه في المجالس والأندية دون خوف أو وجل إلى أن قتل التستري سنة ٤٣٩هـ

وصفا جو مصر للوزير الفلاحي الذي كان يعطف على المؤيد بعض العطف . لذلك نراه يسمح للمؤيد بمقابلة إمامه المستنصر . وتمت هذه المقابلة في آخر يوم من شعبان سنة ٤٣٩ ؛ وهنا أترك للمؤيد وصف مقابلته الأولى لإمامه : « وكنت في مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذي ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية ، فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعة وغلبتني العبرة وتمثل في نفسي أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ماثل ، وبوجهي إلى وجيههما مقابل ، واجتهدت عند وقوعي إلى الأرض ساجداً أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقولاً وعن مزية الخطابة معزولاً ، ولما رفعت رأسي وجمت علي ثوبي للقعود ، ووجدت بنانا يشير إلي بالقيام ، فقطب أمير المؤمنين خلد الله ملكه وجهه عليه زجراً على أنني ما رفعت به رأساً ، ولا جملت له قدراً ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدي لقول ، وكلما استرد الحاضرون مني كلاماً ازددت إعجاماً ولعقبة اللعي اقتحاماً وهو خلد الله ملكه يقول : « دعوه حتى يهدأ أو يستأنس » ، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري ودعيت وخرجت »

وعين المؤيد بعد ذلك حاجباً على باب المجلس الذي يدخل منه إلى أم الخليفة المستنصر الفاطمي ، حتى يكون على صلة دائماً بإمامه ، ودفع المؤيد بهذا العمل المتواضع لا لشيء إلا لأنه سيكون على قرب من الإمام ، ولكن اليازوري خليفة التستري ، خشي مغبة اتصال المؤيد بالمستنصر فعزله بعد ثلاثة أشهر واشتدت نكبة المؤيد بقتل الوزير الفلاحي وتولية الجرجرائي الوزارة بعده ، فقد كان هذا الوزير الجديد يخشى على مركزه وسلطته من المؤيد ، فعادت إلى المؤيد سيرته الأولى من كثرة الأعداء حوله وعن ذلك يقول المؤيد « وتحيرت في شأني لا أفتح عيناً إلا على عدو ، ولا أرى في جهة من الجهات إلا ضمير سوء » ؛ فصمم المؤيد على السفر من مصر ، وبلغ اليازوري ذلك فاستدعاه وأقنعه بالعدول عن عزمه ، فظن المؤيد أن هذا التبليغ بإيعاز من المستنصر فاضطر إلى الخضوع ، ولا سيما وقد أصبح اليازوري الداعي الأكبر ، وكان اليازوري ، كما وصفه المؤيد رجلاً عاطلاً من المواهب التي تؤهله لمرتبة الدعوة ؛ فأراد المؤيد أن يتقرب إليه وأن يصلح علاقته معه ، فاتفقا على أن يضع المؤيد المجالس والمحاضرات التي يقرؤها داعي الدعاة عادة كل يوم خميس على أتباع المذهب ، واجتهد المؤيد في تحسين وتجميل هذه المحاضرات حتى

يعلم اليازورى أن المؤيد قد أخلص الخدمة له ، واستمر الأمر على هـذا المنوال مدة طويلة كان اليازورى يلقى المحاضرات التى كتبها المؤيد وكأنهـا من إنشائه حتى ولى اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢ ، فلم يشك الناس فى أن أمر الدعوة صار إلى المؤيد ، دون غيره ، ولـكن خاب فألهم إذ ندب لهـا أحد بنى الصمان واعتذر اليازورى للمؤيد بكلام خفف آلامه بعض الشىء ووعده وعداً حسناً ، وانتظر المؤيد الوفاء بهذا الوعد ، ولـكنها لحقت بالوعود الأخرى ، فاشتد حنق المؤيد ، وأرسل إلى الوزير يهجوه ، فتوعده الوزير وهدده ، والمؤيد كعادته لم يأبه بوعيد ولم يخش من تهديد ، فاستمر فى حملته ضد الوزير وا قطع عن لقائه سبعة أشهر إلى أن كانت ثورة بنى قرة وانتصار الجيش فى قمع هذه الثورة سنة ٤٤٣ وسارت الوفود لتهنئة الوزير ، فألح أصدقاء المؤيد عليه أن يذهب معهم للوزير ، ففعل مرضاة أصدقائه ، وسر الوزير لقدومه وعينه بعد ذلك رئيساً لديوان الإنشاء وضاعف فى رزقه فتحسن حاله ومع ذلك كانت أحواله مع اليازورى بين الرضى والغضب ، وكل ذلك مرجعه إلى طموح المؤيد وطمعه فى الوصول إلى درجة داعى الدعاة

ظل المؤيد صاحب دار الإنشاء فى مصر إلى أن سمع بدخول طغرلبك التركمانى مدينة الرى سنة ٤٤٦ ، وبحكم عمله بدار الإنشاء علم بأن البيزنطيين اتفقوا مع السلجوقيين لغزو أملاك الفاطميين فى الشام وأعالى الجزيرة ، فعمد المؤيد إلى المكر والخديعة ، فـكاتب الـكندرى وزير طغرلبك وكاتب غيره ممن توهم أنهم على اتصال بالسلجوقيين ، واجتهد فى أن يستميلهم جميعاً للمذهب الفاطمى وإلى مساعدة الفاطميين ضد البيزنطيين والعباسيين ، وكان يرمى بذلك إلى هدفين ، إما أن ينجح مسعاه ويدخل القوم فى الدعوة الفاطمية أو أن تصل إلى مسامع الخليفة العباسى أمر هـذه المـكاتبات ، فلا يطمئن إلى طغرلبك وصحبه ويحاربه ليبعده عن أملاك الدولة العباسية ، ولـكن جيوش طغرلبك زحفت إلى العراق وخطب له على منابر بغداد سنة ٤٤٧ ، وسمع المؤيد بهروب البساسيرى من بغداد خوفاً من التركمانية ؛ فانتهز المؤيد هذه الفرصة وكاتب البساسيرى ووعده بالأموال والسلاح ليحارب السلجوقيين باسم الفاطميين ، ومن الطبيعى أن يرحب البساسيرى بالعمل باسم الخليفة الفاطمي ، وأرسل إلى المؤيد بذلك ، فذهب المؤيد إلى الوزير اليازورى وأطلعه على هذه المـكاتبات فوافقت هوى الوزير ، واستعد الفاطميون فى تجهيز الأموال والخلع والسلاح التى وعدوا بها البساسيرى ، ولـكن اليازورى لم ينس للمؤيد تصرفه هذا بدون استشارته فى أول الأمر ، وانتهز هـذه الفرصة لافتلاع المؤيد من مصر لازدياد نفوذ المؤيد فى البلاد ؛ فقد اكتسب المؤيد فى هذه الفترة الطويلة احترام وحب عدد كبير من المصريين وخاصة بعض حاشية الإمام المستنصر . لذلك نرى اليازورى يعهد إلى المؤيد أن يكون على رأس الركب المسافر بالأموال والخلع ؛ فاعتذر المؤيد وأدرك من توه ما كان يجول بخاطر اليازورى ، ولذلك كان يقابل مكر الوزير بمكر أشد منه وأقوى ، حتى كاد اليوم الذى حددوا فيه السفر تمسك الوزير بأذيال المؤيد ، وأخذ يستعطفه ويلح عليه بأن يتولى توصيل الأموال إلى البساسيرى ، والمؤيد يمن فى الرفض كلما أمعن الوزير فى الإلحاح ، حتى اضطر الوزير أن يقول للمؤيد : « افتقرنا إليك وافتقرت الدولة والإسلام والمسلمون ، وديانتك تقتضى أن تصرخ صريخهم وتجير مستجيرهم » . فسخر المؤيد من كلامه هـذا ، وأجابه متهكما : « سبحانى سبحانى إن كنت بهذه المثابة ومحلاً لهذه المخاطبة ! » ولـكن الوزير ازداد إلحاحاً واشتد دفع المؤيد ، وأخيراً قبل المؤيد أن يتولى هذا الأمر بشرط أن يخرج توقيع الإمام المستنصر بأن لا يوجه إليه لوم لو فشل فى مهمته ؛ فأجيب إلى ذلك وصدر التوقيع وبه الإنعام على المؤيد بخلع الوزارة ، ودعى المؤيد للبسها ولـكنه رفض ، واعتذر عن ذلك مفضلاً أن يظل فى زى أهل العلم

وأخذ الركب فى السير بين جلبة عظيمة ، والناس فى عجب من أمر المؤيد الذى قبل السفر فى هذه المهمة الشاقة ؛ فقد كان مقدماً على خطر جسيم وعمل لا يستهان به ، وهو قلب نظام الحكم فى العراق وإسقاط الدولة العباسية . والغريب حقاً أن يطلب المؤيد ألا يصطحب معه جنداً واكتفى بما معه من خزائن المال والسلاح

تجاوز الركب حدود مصر فى طريقه إلى الرحبة ، وكان اليازورى قد نصح المؤيد بالابتعاد عن ابن صالح المرداسى صاحب حلب ، لأنه نقض عهد الفاطميين واستقل ببلاده ، فصار عدواً للفاطميين بعد أن كان تابعاً لهم ، ونصحه كذلك أن يصطنع عدداً من الكلبيين ليحاربوا مع البساسيرى ، فـكانت هذه النصائح موضع تفكير المؤيد طول سفره ، حتى بلغ دمشق